العقيدة ١

المحاضرة العاشرة

الرد على المعتزلة

ومعنى القرآن

الرد على المعتزلة في مسألة الكلام :

وأما استدلالهم بقوله تعالى: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }، والقرآن شيء، فيكون داخلاً في عموم كل فيكون مخلوقاً ! ! فمن أعجب العجب. وذلك: أ -أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها، لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم كل، وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْر } ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقاً لزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر، إلى ما لا نهاية له، فيلزم التسلسل، وهو باطل. وطرد باطلهم: أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة، كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر، فإن علمه شيء، وقدرته شيء، وحياته شيء، فيدخل ذلك في عموم كل، فيكون مخلوقاً بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ب- وعموم كل في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن. ألا ترى إلى قوله تعالى: { تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ } ومساكنهم شيء، ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح ؟ وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير. وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس: { وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام. إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر الملك، غير محتاجة الى ما يكمل به أمر ملكها، ولهذا نظائر كثيرة.

والمراد من قوله تعالى: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ،أي كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق، فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى، وصفاته ليست غيره، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة، لا يتصور انفصال صفاته عنه، كما تقدم الاشارة إلى هذا المعنى عند قوله: ما زال قديماً بصفاته قبل خلقه.

ج- بل نفس ما استدلوا به يدل عليهم. فاذا كان قوله تعالى: الله خالق كل شيء مخلوقاً، لا يصح أن يكون دليلاً.

٢ - وأما استدلالهم بقوله تعالى: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }، فما أفسده من استدلال ! فإن جعل إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } وقوله تعالى: { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ* وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق قال تعالى: { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً }

وقال تعالى: { وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً } وقال تعالى: { الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } وقال تعالى: { وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ } وقال تعالى: { وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ } وقال تعالى: { وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً } ونظائره كثيرة فكذا قوله تعالى: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً .

٣- وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى: { نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ } على أن الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة فسمعه موسى منها، وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَن } والنداء: هو الكلام من بعد: فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي ثم قال: فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ · أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم ! ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة، لكانت الشجرة هي القائلة: { يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } وهل قال: { إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } غير رب العالمين؟

. وكيف يصح أن يكون متكلماً بكلام يقوم بغيره؟ ولو صح للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه! وكذلك ما خلقه في الحيوانات، ولا يفرق بين نطق وأنطق. وإنما قالت الجلود:(أنطقنا الله]،ولم تقل نطق الله ،بل يلزم ان يكون متكلماً بكل كلام خلقه بغيره ،زورا كان أو كفراً أو هذياناً!!تعالى الله عن ذلك ألزم الإمام عبدا لعزيز المكي بشراً المريسي بين يدي المأمون ،قال عبد العزيز يلزمك واحدة من ثلاث لابد منها: إما أن تقول إن الله خلق القرآن، أو خلقه قائما بذاته ونفسه، أو خلقه في غيره ؟ قال: أقول: خلقه كما خلق الأشياء كلها. وحاد عن الجواب. فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة ودع بشراً فقد انقطع .فقال عبد العزيز: إن قال خلق كلامه في نفسه فهذا محال لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة ولا يكون فيه شيء مخلوق وإن قال :خلقه في غيره فيلزم النظر والقياس أن كل كلام خلقه في غيره فهو كلامه ،وهو محال أيضاً ،وإن قال خلقه في نفسه وذاته فهو محال ؛لا يكون الكلام إلا من المتكلم كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ،و لا العلم إلا من عالم ،ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته

٤-قولهم :إنه يلزم من ذلك قيام الحوادث به سبحانه:

- فإذا قالوا لنا :فهذا يلزم منه أن يكون الحوادث قامت به. قلنا هذا القول مجمل، ومن أنكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة؟
- ولا شك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول، لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه، بل الذي أفهموهم إياه: أن الله نفسه هو الذي تكلم، والكلام قائم به لا بغيره، وأنه هو الذي تكلم به وقاله، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك:(ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بوحي يُتلى)،ولو كان المراد في ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه ،إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.
- الرد على الكلابية والأشاعرة ومن وافقهم :

■ وكثير من متأخري الحنفية على أنه معنى واحد، والتعدد والتكثر والتجزؤ والتبعض حاصل في الدلالات، لا في المدلول. وهذه العبارات مخلوقة، وسميت كلام الله لدلالتها عليه وتأديه بها، فإن عبر بالعربية فهو قرآن، وإن عبر بالعبرانية فهو توراة، فاختلفت العبارات لا الكلام. قالوا: وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازاً !

■ وهذا الكلام فاسد ..

■ ١- فإن لازمه أن معنى قوله: { وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى } هو معنى قوله: { وأقيموا الصلاة }.

■ ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين !

■ ٢- ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله، وليس هو كلام الله، لما حرم على الجنب المحدث مسه، ولو كان ما يقرأه القارىء ليس كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث قراءته.

■ ٣- وقد قال تعالى: { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ } . وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله. والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، فإنه تعالى قال: حتى يسمع كلام الله، ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله. والأصل الحقيقة. ومن قال: إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله، أو حكاية كلام الله، وليس فيها كلام الله -: فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالا.

■ ٤- ويقال لمن قال إنه معنى واحد -: هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه ؟ فإن قال: سمعه كله، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله وفساد هذا ظاهر. وإن قال: بعضه، فقد قال يتبعض. وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل إليه شيئاً من كلامه.

■ ولما قال تعالى للملائكة: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَة } ولما قال لهم: { اسْجُدُوا لِآدَمَ }.

■ وأمثال ذلك -: هل هذا جميع كلامه أو بعضه ؟ فإن قال: إنه جميعه، فهذا مكابرة، وإن قال: بعضه، فقد اعترف بتعدده.

■ ٥ - وأما من قال إنه معنى واحد، واستدل عليه بقول الأخطل:

■ إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

■ وقيل إنما قال: إن البيان لفي الفؤاد وهذا أقرب إلى الصحة، وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الإستدلال به، فإن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله واتحد اللاهوت بالناسوت ! أي: شيء من الإله بشيء من الناس ! أفيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب ؟!

■ وأيضاً: فمعناه غير صحيح، إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلماً لقيام الكلام بقلبه وإن لم ينطق به ولم يسمع منه، والكلام على ذلك مبسوط في موضعه، وإنما أشير اليه إشارة.

■ ٦- ويرد قول من قال: بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس -: قوله : إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. وقال: إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإنما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة. واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته. واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب، من تصديق بأمور دنيوية وطلب - لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم بذلك. فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

■ ٧- وأيضاً: ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أوتعمل به. فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد: حتى ينطق به اللسان، باتفاق العلماء. فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

■ ٨- ولا شك أن من قال: إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارىء حكاية كلام الله وهو مخلوق -: فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر، فإن الله يقول: { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ·أفتراه سبحانه وتعالى يشير الى ما في نفسه أو إلى المتلو المسموع ؟ ولا شك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع، إذ ما في ذات الله غير مشار إليه، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع.

■ وقوله: لا يأتون بمثله - أفتراه سبحانه يقول: لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه، وما في نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه، ولا إلى الوقوف عليه.

■ فإن قالوا: إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع، فأما أن يشير إلى ذاته فلا - فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشيء بمثله وشبهه. وهذا تصريح بأن صفات الله محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين عجزهم ؟!

■ اتفاق أهل السنة على أن كلام الله غير مخلوق :

■ بالجملة فأهل السنة كلهم ،من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف، متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق. ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات، أو أنه حروف واصوات تكلم الله بها بعد أن يكن متكلماً، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وأن نوع الكلام قديم ،والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله: أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء كيف

شاء ،وأن نوع كلامه قديم، وكذلك كلام الإمام أبي حنيفة في الفقه الأكبر، فإنه قال: "والقرآن كلام الله في المصاحف مكتوب، وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي منزل ولفظنا بالقرآن مخلوق. وسمع موسى عليه السلام كلام الله ،فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين "فقوله: ولما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته يُعلم منه أنه حين جاء كلمه، لا أنه لم يزل ولا يزال أزلاً وأبداً ،يقول :يا موسى كما يُفهم من قوله تعالى:(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)ففهم الرد على من يقول من أصحابه :إنه معنى أن يسمع قائم بالنفس لا يتصور أن يسمع، وإنما يخلق الله الصوت في الهواء،.

■ معنى القرآن لغة واصطلاحاً:

■ والقرآن في الأصل :مصدر، فتارة يذكر ويراد به القراءة، قال تعالى:(وقرآن الفجر إن قرءان الفجر كان مشهوداً).وقال صلى الله عليه وسلم "زينوا القرآن بأصواتكم"، وتارة يذكر ويراد به المقروء، قال تعالى(فإذا قرات القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)،

■ _معنى قوله:(منه بدا):

■ الطحاوي رحمه الله يقول: كلام الله منه بدا. وكذلك قال غيره من السلف، ويقولون: منه بدا وإليه يعود.

■ (منه بدا)أي هو المتكلم به فمنه بدا. لا من بعض المخلوقات وإليه يعود: يرفع من الصدور والمصاحف، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف.

■ معنى قوله: (بلا كيفية)

■ وقوله :بلا كيفية، أي: لا تعرف وكيفية تكلمه به قولاً ليس بالمجاز، وأنزله على رسوله وحياً أي :أنزله إليه على لسان الملك، فسمعه الملك جبريل من الله، وسمعه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الملك، وقرأه على الناس .قال تعالى:(وقراءنا فرقنـهُ لتقرأه على الناس على مُكثٍ ونزلنه تنزيلاً)[الاسراء١٠٦]

■ -تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله:

■ وقوله :ولا يشبه قول البشر، يعني أنه أشرف وأفصح وأصدق. قال تعالى (وما أصدق من الله حديثا) .وقال تعالى:(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله).وقال(قل فأتوا بعشر سورٍ مثله). فلما عجزوا وهم فصحاء العرب مع شدة العداوة –عن الإتيان بسورة مثله، تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه من عند الله. وأعجاز نظمه ومعناه، والقرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين؛ أي باللغة العربية، فنفي المشابهة من حيث التكلم ومن حيث النظم والمعنى لا من حيث الكلمات والحروف.

■ تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله:

■ وقوله: ومن سمعه وقال إنه كلام البشر فقد كفر. لا شك في تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله، بل قال إنه كلام محمد أو غيره من الخلق، ملكاً كان أو بشراً. وأما إذا أقر أنه كلام الله، ثم أول وحرف - فقد وافق قول من قال: إن هذا إلا قول البشر. في بعض ما به كفر، وأولئك الذين استزلهم الشيطان

■ نفي مشابهة كلام الله لكلام البشر :

■ وقوله : ((ولا يشبه قول البشر)) يعني أنه أشرف وأفصح وأصدق . قال تعالى :﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾وقال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾. وقال تعالى : قل فأتوا بعشر سور مثله .وقال تعالى : ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾. فلما عجزوا - وهم فصحاء العرب ، مع شدة العداوة - عن الإتيان بسورة مثله ، تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه من عند الله . وإعجازه من جهة نظمه ومعناه ، لا من جهة أحدهما فقط . هذا مع أنه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين ، أي بلغة العربية . فنفي المشابهة من حيث التكلم ، ومن حيث النظم والمعنى ، لا من حيث الكلمات والحروف .

كفر من وصف الله بمعنى من معاني البشر:

■ قوله:(ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر ،فقد كفر. فمن أبصر هذا واعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر)

ش: لما ذكر فيما تقدم أن القرآن كلام الله حقيقة ،منه بدا، نبَه بعد ذلك على أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر، نفياً للتشبيه عقيب الإثبات، يعني أنه تعالى وإن وصف بأنه متكلم، لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون بها الإنسان بها متكلماً،فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

‘‘‘

بتوفيق للجميع

khaled